

وَسْطِيَّةُ الْأَخْلَاقِ عَلَى ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

علي مهاما ساموه (*)

المخلص: اعتنى الإسلام ببيان أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام، فهي من أهم الأسس التي تبني حضارة الأمة، وتحفظ كيانها، وتزيد من تقدّمها، ونتاج اقتصادياتها؛ بل هي ضرورة من ضروريات التنمية الصحيحة لها. والبحث يوضح وسطيّة الأخلاق الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة بمظاهرها المتعددة؛ بما يساعد على فهم معالم الأخلاق وكيفية تطبيقها في بُعد عن ارتكاب السلوكيات الخاطئة وفق الخطة الآتية: في الفصل الأول تضمن البحث بيان مفهوم وسطيّة الأخلاق، ومكانتها في الإسلام، وأما الفصل الثاني ففيه بيان لمظاهر وسطيّة الأخلاق، وهي: الشمولية، والعدل، والأخلاق نتاج الفطرة والاكْتِسَاب، والثبات والاستمرارية، والواقعية. وخلص البحث إلى توصيات أهمها: أفراد دراسات تعني بتقعيد الأخلاق من خلال النصوص الشرعية والخروج بنتائج تفيد في تنمية الجانب الأخلاقي في المسلم.

الكلمات المفتاحية: الوسطيّة، الأخلاق، التوازن، الشمولية، الفطرة، الواقعية، الثبات.

A study on moderated ethics on the foundation of Qur'an and Sunnah

Ali Mahama Samoh

Abstract: Islam has emphasized the importance of ethical study and its role in developing the civilization of Muslim generation. It is also one of the major factors that bestows upon individuals in which significantly produces the rightful morality. This study has illustrated the notion of moderated ethics which based on the Qur'an and Sunnah fundamental in the diversely explicit examples and its root cause as well as the defensiveness from the immorality and sinful acts. The proposal includes the following scopes; first chapter consists of the definition and justification of moderated ethics. The second chapter stated the consequence and effect from the moderated ethics; those are the comprehensiveness, justice, manner obtained by fitrah (nature) and acquiring, determination, steadfastness, and contemporary. In conclusion, this research has suggested for further study on involvement of ethics on the foundation religious teaching in which contribute to the ethical development of the Muslim community.

Keywords: Moderation, ethics, balance, comprehensiveness, instinct, realism, steadiness.

المقدمة:

اعتنى القرآن والسنة النبوية ببيان الأخلاق الكريمة وتوضيح سماتها، ولم تدع جانباً من جوانب شخصية الإنسان وسلوكياته المختلفة إلا بيّنا بشكل كامل شامل يتناسب مع حاجياته وطبيعته البشرية.

والمأمل في القرآن الكريم يجد أنه اشتمل على كثير من الآيات التي ترشد البشرية لسلوك معالي الأمور وجميل الخصال؛ ومن ذلك قوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَنْبَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُمَّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} {٢٣} إلى أن قال سبحانه وتعالى: {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} {٣٨} [الإسراء: ٢٣-٣٨].

ومعظم ما في هذه الآيات من الأوامر والنواهي متعلق بالتوجيهات الأخلاقية، ففيها: الأمر بالإحسان إلى الوالدين، والدعاء لهما، والإنفاق على المساكين والفقراء، والوفاء بالعهد، والنهي عن التبذير، والبخل، والزنا، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم بالظلم، وعدم القول على الله بغير علم، والنهي عن تطفيف الكيل، واجتناب التكبر وغير ذلك.

كما جاءت السنة النبوية موضحة لمكانة الأخلاق في الإسلام؛ ومبينة لمدى تلازم الإيمان بها؛ قال ﷺ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))^(١) وقال أيضاً مُبَيَّنًا أَنَّ الأخلاق من الأسباب المهمة في ارتقاء درجات المؤمن في الآخرة: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُذْرَكَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةً الصَّائِمِ الْقَائِمِ))^(٢).

إن القرآن والسنة النبوية رسماً للأخلاق بشكل متميز وشامل؛ بما يباعد المسلم عن الوقوع في المفاهيم الخاطئة لمعنى الأخلاق ومعالمها أو ارتكاب السلوكيات الخاطئة التي لا تتوافق مع المنهج الإسلامي، كل ذلك بمنهج معتدل ومثالي وواقعي، وهذا ما سيوضحه البحث ويبينه- إن شاء الله-، من خلال مباحثه المتعددة، وبالله التوفيق، ومنه يستمد العون.

أهمية البحث:

تتبع أهمية البحث من أهمية الأخلاق في الإسلام ومكانتها في الدين؛ فقد وردت نصوص كثيرة تدل على فضل الأخلاق وتحت على التحلي بها^(٣). إضافة إلى ذلك فإن الأخلاق من أهم الأسس والدعائم التي تبني حضارة الأمة، وتحفظ كيانها، وتزيد من تقدمها، ونتاج اقتصادياتها؛ بل هي ضرورة من ضروريات التنمية الصحيحة لها.

ثم إن البحث سيوضح وسطية الأخلاق الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة بمظاهرها المتعددة؛ بما يساعد على فهم معالم الأخلاق وكيفية تطبيقها في بُعد عن ارتكاب السلوكيات الخاطئة.

أهداف البحث:

- يسعى البحث لتحقيق الأهداف الآتية:
- إبراز مفهوم وسطية الأخلاق.
- إبراز أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام.
- توضيح مظاهر وسطية الأخلاق الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة.

(١) رواه أبو داود في سننه: رقم الحديث (٤٦٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (١٢٣٠).

(٢) رواه أبو داود في سننه: رقم الحديث (٤٧٩٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (١٦٢٠).

(٣) سيأتي بيان الأدلة على ذلك.

منهج البحث:

استخدم الباحث في دراسة الموضوع المنهجين الآتيين:
 ١- المنهج الوصفي الاستقرائي، ويفيد هذا المنهج في استقراء المصادر والمراجع المتعلقة بموضوع الدراسة، ومحاولة الاستفادة منها في تدعيم مباحثها.
 ٢- المنهج الوصفي الاستنباطي، ويستخدم هذا المنهج في استنباط الأدلة الشرعية وأقوال العلماء في بيان وسطية الأخلاق في الإسلام على ضوء الكتاب والسنة.
 بالإضافة إلى لوازم المنهج العلمي من: عزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية، وتوثيق النقولات، وعمل الفهارس اللازمة.

خطة البحث:

المقدمة.

الفصل الأول: الأخلاق: مفهومها، وأهميتها.

المبحث الأول: تعريف وسطية الأخلاق.

المبحث الثاني: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام.

الفصل الثاني: مظاهر وسطية الأخلاق على ضوء الكتاب والسنة.

المبحث الأول: الشمولية.

المبحث الثاني: العدل في الأخلاق.

المبحث الثالث: الأخلاق نتاج الفطرة والاكْتساب.

المبحث الرابع: الثبات والاستمرارية.

المبحث الخامس: الواقعية.

الخاتمة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفصل الأول:

الأخلاق: مفهومها، وأهميتها.

المبحث الأول: تعريف وسطية الأخلاق

المطلب الأول: تعريف الوسطية في اللغة والشرع:

في اللغة:

الوسطية: مصدر مشتق من فعل (وسط)، وكلمة (الوسط) في اللغة العربية تأتي في عدة معانٍ، منها:

١- العدل والنصف. يقول ابن فارس: «الواو والسّين والطاء: بناء صحيح يدلّ على العدل والنّصف».

٢- وأعدل الشيء: أوسطه، ووسطه»^(٤).

٣- الخيرية والفضل. فأوسط الشيء أفضله وأخيرته^(٥).

٤- التوسط بين طرفين مذمومين^(٦)، يقال: السّخاء وسط بين البخل والتّبذير، والشّجاعة وسط بين الجبن والتّهوّر.

(٤) انظر: معجم مقاييس اللغة مادة: (وسط) ١٠٨/٦.

(٥) انظر: لسان العرب مادة (وسط) (٤٢٨/٧).

(٦) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: وسط ص (٥٢٢).

في استعمال الشرع^(٧):

وردت الوسطية في الشرع على عدة معانٍ، ومن تلك المعاني التي لها صلة مباشرة بموضوعات البحث هي:

العدالة والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط.

ومن ذلك قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [البقرة: ١٤٣].

وقد فسر النبي ﷺ الوسط بالعدل^(٨).

كما فسر العلماء الوسط: بالخيار والأجود، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } (الوسط هنا: الخيار والأجود، كما يُقال في قریش: أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها)^(٩).

وجاء في تفسير السعدي: أي: عدلاً خياراً^(١٠).

وفسر ابن جرير الوسط بمعنى: التوسط بين الإفراط والتفريط^(١١).

المطلب الثاني: تعريف الأخلاق.

أولاً: الأخلاق في اللغة:

الأخلاق جمع خُلُق، ومادة (خَلَق) في اللغة لها عدة معانٍ؛ منها: الفطرة، والسجية، والطبع، والدين^(١٢).

يقول ابن منظور في بيان حقيقة الخُلُق: «وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ لُصُورَةُ الْإِنْسَانِ الْبَاطِنَةِ، وَهِيَ نَفْسُهُ وَأَوْصَافُهَا وَمَعَانِيهَا الْمُخْتَصَّةُ بِهَا بِمَنْزِلَةِ الْمَخْلُوقِ لُصُورَتِهِ الْمَظَاهِرَةَ. وَأَوْصَافُهَا وَمَعَانِيهَا، وَلَهُمَا أَوْصَافٌ حَسَنَةٌ وَقَبِيحَةٌ...»^(١٣).

وبالنظر إلى ما قاله ابن منظور يتضح أن لمادة ((خُلُق)) في اللغة جانبان:

الجانب الأول: جانب يتعلق بظاهر الإنسان، وهو هيبته ومظهره وسمته، وهو ما يعبر

بالخُلُق.

الجانب الثاني: جانب نفسي باطني، ويتعلق بسجايا الإنسان، وصفاته الخُلُقِيَّة، وهو ما يعبر

بالخُلُق.

وهذا يعني أن كلمة الخُلُق هي الصورة الباطنة في الإنسان، والتي تنعكس آثارها على تصرفاته الظاهرة، وهي التي تسمى بالسلوك الأخلاقي.

ومن خلال هذا العرض اللغوي، فإنه يمكن تلخيص أبرز المعاني اللغوية المتعلقة بالخُلُق

فيما يأتي:

- ١- أن مادة (خلق) لها عدة معانٍ، منها: السجية، والطبع، والدين، والفطرة.
- ٢- أن حقيقة الخلق لها جانبان: جانب يتعلق بمظهر الإنسان وسمته، وجانب آخر يتعلق بالجانب الباطني السلوكي.
- ٣- أن الأخلاق منها حسنة ومنها قبيحة.
- ٤- أن الخلق يدل على الصفات الجبلية الفطرية في خلق الإنسان غير أنه يكتسب ويصبح وكأنه خلق مع طبيعته الفطرية^(١٤).

(٧) للاستزادة حول الوسطية في استعمال الشرع: وسطية أهل السنة بين الفرق، للدكتور محمد باكريم (ص ١٨-٢٣)، والوسطية في القرآن الكريم، للدكتور علي محمد الصلابي (ص ١٧ وما بعدها).

(٨) رواه البخاري في صحيحه رقم الحديث (٤٤٨٧).

(٩) تفسير ابن كثير (١/٤٥٤).

(١٠) تفسير السعدي (ص ٧٠).

(١١) تفسير الطبري (٣/١٤٢).

(١٢) ينظر: لسان العرب (٤/١٩٤) ومصباح المنير للفيومي (ص ١٨٠) ومختار الصحاح للرازي (ص ١٢١).

(١٣) لسان العرب (٤/١٩٤).

٥- أن الخلق الذي يُعَوَّل عليه هو السلوك الظاهر الذي يمثل طويّة الإنسان.

ثانياً: الأخلاق في الاصطلاح:

أ- الاصطلاح العام: الأخلاق بمعنى الإسلام والقرآن، قال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤] على دين عظيم وهو الإسلام^(١٥)، وقالت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي ﷺ ((كان خلقه القرآن))^(١٦).

- الاصطلاح الخاص:

تعددت تعريفات الأخلاق في الاصطلاح الخاص^(١٧)، ويدور معظمها حول معنى واحد، وهو أن الأخلاق عبارة عن أوصاف الإنسان التي يتعامل بها مع الغير^(١٨). ومن بين التعريفات الجامعة تعريف الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين حيث عرّف الخُلق بأنه «عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خُلُقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خُلُقاً سيئاً»^(١٩).

ولهذا التعريف الدلالات الآتية:

أ - أن باعث السلوك الأخلاقي النفس الإنسانية، فهي التي تُصدر الأفعال سواءً كانت حسنة أم مذمومة.

وهذه الميزة تؤكد أن السلوك الأخلاقي ليس مقتصرًا على الأعمال الظاهرة فحسب، بل على الإنسان مراعاة أعمال القلوب من النيات الصالحة، والتأكد من سلامة البواعث والدوافع^(٢٠).

ب - لا بد من اتصاف الخُلق بالثبات والدوام والسهولة، فهو هيئة راسخة في النفس لا يوصف به إلا من داوم عليه، وصدر عنه بسهولة ويسر، فمن اصطنع الكرم أو فعله عرضاً أو تكلف فعله لا يسمى كريماً.

وهذا لا يعني عدم قبول الأخلاق للتغيير مطلقاً؛ إذ الأخلاق تتغير بالرياضة والتعليم وغيرها من الوسائل والطرق التي تنمي الأخلاق وتهذبها.

ج - أن مستند الخُلق الشرع والعقل، فالحسن ما يحمد شرعاً وعقلاً^(٢١)، والقبح ما يذم شرعاً وعقلاً، وما كان حسناً فهو محل ثواب، وما كان مذموماً فهو محل عقاب^(٢٢).

هذا وقد لاحظ البعض على التعريف الاصطلاحي السابق تغليب الجانب النفسي على الجانب العملي وهو السلوك، مع أن الجانب العملي مهم في تنمية الأخلاق وتهذيبها^(٢٣).

ويمكن أن يقال في الجواب على هذه الملاحظة: أن الجانب النفسي هو الأساس في منطلق الأخلاق والسلوك، والجانب العملي تابع له في الغالب، ومن هنا أتى التركيز عليه.

(١٥) التربية الأخلاقية الإسلامية، لمقداد يالجن (ص ٦٤).

(١٦) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ص ١٥٠٩).

(١٧) أخرجه مسلم رقم الحديث (١٤٧٥).

(١٨) انظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهاني (ص ١١٤)، والتعريفات للجرجاني (ص ١٠٤) وتسهيل النظر وتعجيل الظفر، للماوردي (ص ٥).

(١٩) انظر: أصول التربية الإسلامية، لخالد الحازمي (ص ١٣٦).

(٢٠) إحياء علوم الدين (٤٩/٣).

(٢١) الأخلاق الفاضلة قواعد ومنطلقات لاكتسابها، لعبد الله ضيف الله الرحيلي (ص ٢٦) وجوانب التربية الإسلامية، لمقداد يالجن (ص ٢٨٧) وأسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، للزنتاني (ص ٦٥٢).

(٢٢) انظر مسألة: هل يعرف حسن الأفعال وقبحها بالعقل أم بالشرع؟: كتاب التدمرية، لابن تيمية (ص ٢١٥-٢١٨).

(٢٣) المسؤولية الخلقية والجزاء عليها، لأحمد الحلبي (ص ١٨).

(٢٤) المرجع السابق (ص ١٩).

كما لاحظ البعض إغفال التعريف جانب الإرادة، والتركيز على الجانب الغريزي؛ مع أن الإرادة من أقوى أعمال النفس ومبدأ أفعالها^(٢٤).

ويمكن أن يجاب على هذه الملاحظة بأن تركيز التعريف على الجانب الغريزي وصدورها من غير حاجة إلى فكر وروية جاء على أساس أن الخلق قد تمكن من صاحبه بحيث تصبح تصرفاته الخلقية تلقائياً دون تردد يبعث على الفكر، وليس أنه لا يحتاج إلى الإرادة، بدليل أن الغزالي وغيره ممن عرّفوا هذا التعريف لم يهملوا في شرحهم للتعريف جانب الإرادة والتكليف، بل فصلوا هذا الجانب بالأدلة الشرعية والعقلية؛ ثم إن التعريف اشتمل على بيان الجانب النفسي، والإرادة من أعمال النفس، وعليه فهي داخلة في مجمل التعريف.

وبهذا العرض لمفهوم الاصطلاح يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

- ١- أن الخلق أصله جبلي، وأن لدى الإنسان استعداداً وإرادة على تحسين خلقه أو تشويهه.
- ٢- لا يوصف المرء بخلقٍ ما إلا إذا كان على وجه دائم عليه، وثبت على ذلك، فإذا حصل منه الصفة سواء كانت حسنة أو سيئة على وجه الندرة؛ فإنه لا يوصف بذلك؛ لأنه ليس سجيّة من سجاياه، وإن كان قد يؤاخذ على ذلك.
- ٣- أن مستند الخلق الشرع والعقل، فالحسن ما يحمد شرعاً وعقلاً، والقبح ما يذم شرعاً وعقلاً، وهذا الأمر يعطي للأخلاق الإسلامية صفة الرسوخ والثبات.

المطلب الثالث: مفهوم وسطية الأخلاق

على ضوء تعريف الوسطية والأخلاق يمكن القول إن وسطية الأخلاق تعني: خيرية الأخلاق والتوازن والاعتدال في تطبيقها بما يعين على التحلي بها على الوجه الصحيح في بُعد عن ارتكاب السلوكيات الخاطئة.

المبحث الثاني: أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام

إن الوقوف على أهمية الأخلاق ومكانتها في الإسلام مما يعين المسلم على التخلق بالأخلاق الحسنة والبعد عن مساوئها، ولذا يحسن الوقوف على بعض العناصر التي تبين مكانة الأخلاق في الإسلام، والتي منها:

أولاً: عظم أجر المتصف بالخلق الحسن وسمو منزلته في الجنة:

وعد الله -ﷻ- المؤمنين جنّات عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واختص الله -ﷻ- أهل الأخلاق الحسنة من المؤمنين بالدرجات العلى في الجنة؛ قال ﷺ: ((مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ..))^(٢٥).

وأيضاً جاء في السنة أن الله -ﷻ- اختص أهل الخلق الحسن ببيت عال في الجنة؛ فقال ﷺ: ((أَنَا رَعِيمٌ بَيْتِي فِي رَبَضِ^(٢٦) الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحَقًّا، وَبَيْتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبَيْتِي فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ))^(٢٧).

كما وضحت السنة أن بحسن الخلق ينال العبد درجة الصائم القائم، قال ﷺ: ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُذْرَكَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ رَجَّةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))^(٢٨).

ثانياً: ارتباط الأخلاق بالإيمان:

يبين الإيمان والأخلاق علاقة وطيدة فالإيمان هو أس الفضائل،... كما أن الأخلاق من علامات كمال الإيمان.

^(٢٤) المصدر السابق (ص ١٩).

^(٢٥) أخرجه الترمذي في سننه: رقم الحديث (٢٠٠٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

^(٢٦) أي ما حولها خارجاً عنه (النهاية لابن الأثير: ٢١٨٥).

^(٢٧) أخرجه أبو داود في سننه: رقم الحديث (٤٨٠٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (١٤٦٤).

^(٢٨) تقدم تخريجه.

فالإيمان له تأثير بالغ على البواعث التي تؤثر في سلوك الإنسان وأخلاقه وتصرفاته؛ ولهذا فالمؤمن ترتقي أخلاقه وتكمل بقدر تمكّن العقيدة من قلبه، ويهبط سلوكه بقدر ضعف إيمانه^(٢٩). وفي المقابل فإن الأخلاق من علامات كمال الإيمان؛ فالمسلم كلما حسن خلقه وجمل آدابه كان أكمل إيماناً، وأقرب منزلة عند ربه؛ جاء في الحديث الصحيح الذي يبين ترابط الإيمان بالسلوك الحسن: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))^(٣٠). ومما يدل على ارتباط الأخلاق بالعقيدة أن القرآن الكريم كثيراً ما يحثّ على الأخلاق الفاضلة، فيبدأ بالإيمان قبل الأمر بها، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان يقتضي ذلك^(٣١)، وأن الأخلاق من ثمار الإيمان؛ ومن ذلك قوله تعالى في الحث على التقوى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩].

وبهذا يتبين مكانة الأخلاق في الإسلام وأنها ملازمة للإيمان، فالإيمان يوجّه سلوك الإنسان، والأخلاق تزيد من إيمانه، وهذا مما يحفز المسلم للتخلق بالأخلاق الحسنة، وتطبيقها في حياته العملية؛ ليكون بذلك من المؤمنين الصادقين.

ثالثاً: الأخلاق من أهداف الرسالة المحمدية:

اشتملت النصوص الشرعية التوجيهات الأخلاقية في جميع مجالات الإنسان ومناشئها، بل إن الأخلاق من أبرز أهداف بعثة النبي -ﷺ-، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، وقال ﷺ مبيّناً الهدف من رسالته: ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))^(٣٢). والعلة في ذلك أن الأخلاق «على التحقيق شطر الدين»^(٣٣) وجماعه وملاكه، بها يستطيع العبد أن يحسن علاقته مع ربه -ﷻ-، ويحدّد علاقاته الجيدة وسلوكه الطيب مع الخلق أجمعين؛ ولهذا فسر ابن عباس -رضي الله عنهما- كلمة ((الخلق)) بالدين في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} قال: على دين عظيم وهو الإسلام^(٣٤).

وبهذا يتضح أن الأخلاق الفاضلة هي غاية الدين التي يرمي إلى بلوغها من خلال تكوين الشخصية السوية للإنسان المسلم الذي لا يكمل إيمانه إلا إذ صلحت أخلاقه واستقامت أقواله وأعماله، وهذا مما يدل على أهمية الدعوة إلى تحقيق الخلق الحسن في المسلمين، وتطبيق ذلك في جميع مجالاتهم العلمية والاجتماعية والاقتصادية.

رابعاً: أن الأخلاق وقاية للمجتمعات من الفساد:

من المعلوم أن أخلاقيات الأفراد تنعكس على المجتمع، فإن كان الأفراد على خلق حسن كان المجتمع على خير وأمان، وإن كانوا على سيء الأخلاق كان المجتمع كذلك؛ «إذ الفرد يمثل المجتمع في خصائصه كما أن المجتمع يمثل أفراداً في أخلاقهم»^(٣٥)؛ وعليه فالأخلاق الحسنة تحفظ على المجتمع توازنه وأمنه في هذه الحياة الدنيا.

جاء في الأثر أنه ﷺ قال: ((يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور

(٢٩) أصول التربية الإسلامية لخالد الحازمي (ص: ١١٣).

(٣٠) تقدم تخريجه.

(٣١) تربية الرسول -ﷺ- لأصحابه في الناحية الأخلاقية، للصدّيق عمر فضل الله (ص ١٣٩) والفساد الخلفي في المجتمع ناصر بن عبد الله التركي (ص ٧).

(٣٢) رواه أحمد في مسنده (٣٨١/٢). وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ١٠٥): رجاله رجال الصحيح.

(٣٣) موعظة المؤمنين، للقاسمي (٢٦٥).

(٣٤) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ص ١٥٠٩).

(٣٥) دور التربية الأخلاقية الإسلامية لبناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، لمقداد يالجن (ص: ٦٧).

السلطان، وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب الله عليهم عدوا فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم))^(٣٦).

ومن هنا جاء الإسلام بشعيرة من أعظم الشعائر وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعا إلى تحقيقها في المجتمع المسلم، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران ١١٠]، وقال ﷺ: ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذي في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً))^(٣٧).

والمأمل لواقع المجتمع المسلم يرى أنه يواجه تحديات من الانحلال الخلقي والفساد في العلاقات الاجتماعية، وشيئاً من الفساد الخلقي في التطبيقات الإدارية والمالية والاقتصادية، بما يؤكد أهمية دراسة علم الأخلاق، والوقوف على مفهومه وضوابطه الشرعية، والتعرف على طرق اكتسابها، بما يعزز لديها التطبيقات الخلقية التي تضمنها المنهج الإسلامي حتى تستقيم أحوال الأفراد في كل جوانبها الشخصية، فتخرج المجتمعات الإسلامية كخير أمة أخرجت للناس كما كانت في السابق.

الفصل الثاني:

مظاهر وسطية الأخلاق الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة

المبحث الأول: الشمولية

إن الأخلاق في مفهوم القرآن والسنة ليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك، إنما هي من أصول الدين وأساسه المتينة؛ قال تعالى واصفاً رسوله ﷺ بأعظم الصفات: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} أي: على دين عظيم وهو الإسلام^(٣٨).

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ أجابت بأن ((خلقته القرآن))^(٣٩). يقول قتادة: «هُوَ مَا كَانَ يَأْتِمُرُ بِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَيَنْتَهِي عَنْهُ مِنْ نَهْيِ اللَّهِ، وَالْمَعْنَى إِنَّكَ لَعَلَى الْخُلُقِ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ»^(٤٠).

والمأمل في النصوص الشرعية يجد أنها لم تدع جانباً من جوانب شخصية الإنسان المتعلقة بالسلوكيات والأخلاق إلا وضحتها وبينت المنهج الأمثل والسلوك الصحيح بشكل متكامل شامل معتدل واقعي.

وإليك بعض النماذج^(٤١):

١- الأخلاق المتعلقة بجوانب شخصية الإنسان المختلفة:

أ- أخلاقيات متعلقة بحاجاته الجسمية من الأكل والشرب وغير ذلك، قال تعالى: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف: ٣١]. وجاء في السنة مفصلة بتفصيل أوسع وأكثر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((ما عاب النبي ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه))^(٤٢) وفي الحديث: ((إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ))^(٤٣).

(٣٦) رواه ابن ماجه رقم الحديث (٤٠١٩)، وصححه الألباني في السلسلة رقم الحديث (١٠٦)

(٣٧) رواه البخاري رقم الحديث (٢٤٩٣).

(٣٨) تفسير ابن كثير (١٨٨/٨).

(٣٩) أخرجه مسلم رقم الحديث (١٤٧٥).

(٤٠) تفسير البيهقي (١٣٠/٥).

(٤١) انظر تلك النماذج بالتفصيل: الوسيطة في القرآن الكريم، للدكتور محمد الصلابي (ص ٤٥١ وما بعدها)

(٤٢) رواه البخاري رقم الحديث (٥٤٠٩).

(٤٣) رواه أبو داود في سننه رقم الحديث (٣٧٦٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (٣٨٠).

وفي حديث آخر: ((إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ، وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ))^(٤٤).

ب- أخلاقيات متعلقة بالجانب التفكيرى؛ قال تعالى: {قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١]، وفي الحديث: ((تَفَكَّرُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللَّهِ))^(٤٥).

ج أخلاقيات متعلقة بالجانب الاقتصادي، قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} (الإسراء: ٢٩). وفي الحديث عن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُنِي عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ مِنْ وَجَعٍ اسْتَدَّ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ وَأَنَا ذُو مَالٍ، وَلَا يَرِثُنِي إِلَّا ابْنَةٌ، أَفَأَتَصَدَّقُ بِثَلَاثِي مَالِي؟ قَالَ: «لَا» فَقُلْتُ: بِالشُّطْرِ؟ فَقَالَ: «لَا» ثُمَّ قَالَ: «الثَّلْثُ وَالثَّلْثُ كَبِيرٌ - أَوْ كَثِيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْنَعِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّىٰ مَا تَجْعَلَ فِي فِي أَمْرَاتِكَ»^(٤٦).

- الأخلاق المتعلقة بالأسرة:

أ- أخلاقيات العلاقة بين الزوجين، قال تعالى: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} [النساء: ١٩]. وفي الحديث: ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِذَا شَهِدَ امْرَأًا فَلْيَتَكَلَّمْ بِخَيْرٍ أَوْ لِيَسْكُتْ، وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضَلَعٍ، وَإِنْ أَعْوَجَ شَيْءٌ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، إِنْ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ كَسَرَتْهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا))^(٤٧).

ب- أخلاقيات العلاقة بين الأبوين والأولاد، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا} [الأحقاف: ١٥]، وقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا} [الإسراء: ٣١]. وعن النعمان بن بشير، أَنَّ أَبَاهُ نَحَلَ ابْنًا لَهُ غُلَامًا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشْهَدُهُ، فَقَالَ: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحْلَهُ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ هَذَا؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَارُدُّهُ»^(٤٨).

٣- الأخلاق المتعلقة بالمجتمع:

أ- في آداب المجتمع وأخلاقياته، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النور: ٢٧]. وفي الحديث: ((الِاسْتِذْنَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أَدْنَىٰ لَكَ، وَإِلَّا فَارْجِعْ))^(٤٩).

ب- في المعاملات والبيوع، قال تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ وَزَنُواهُمْ يَخْسَرُونَ} [المطففين: ١-٣]. وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ} [البقرة: ٢٨٢]. وفي الحديث: ((أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ - مَرَّ عَلَى صَبْرَةَ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَقَالَتْ أَصَابِعُهُ بِلَاءً، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كِي يَرَاهُ النَّاسُ، وَمَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))^(٥٠).

(٤٤) رواه مسلم في صحيحه: رقم الحديث (٢٠٢٠).

(٤٥) رواه اللالكائي في شرح معتقد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان، باب في الإيمان بالله عز وجل (١/ ١٣٦) عن ابن عمر مرفوعاً. والحديث حسنه الألباني بمجموع طرقه السلسلة الصحيحة، رقم الحديث (١٧٨٨).

(٤٦) رواه البخاري رقم الحديث (١٢٩٥)، ومسلم رقم الحديث (١٦٢٨).

(٤٧) رواه مسلم رقم الحديث (٦٠).

(٤٨) رواه الترمذي في سننه رقم الحديث (١٣٧٦) وقال: حديث صحيح حسن.

(٤٩) رواه مسلم رقم الحديث (٢١٥٣).

(٥٠) رواه البخاري في صحيحه رقم الحديث (٣٦٤٨) ومسلم في صحيحه: رقم الحديث (١٠٢).

وفيما سبق يظهر بجلاء شمولية القرآن الكريم والسنة النبوية في الأخلاق؛ بما يدل على وسطيتها واعتدالها وواقعيتها.

المبحث الثاني: العدل في الأخلاق

المطلوب في تطبيق الأخلاق: هو الاعتدال في تحقيقها دون إفراط ولا تفريط؛ وهذه الوسطية أرشد إليها القرآن الكريم؛ قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان ٦٧].

على ضوء الآية السابقة استنبط العلماء قاعدة ((العدل في الأخلاق))، يقول ابن كثير في تفسير الآية: « {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا} أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم، فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهلهم، فيقصرن في حقهم، فلا يكفونهم، بل عدلا خيارا، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا»^(٥١).

ويقول القاسمي معلقا على الآية: « والذي يدل على أن المطلوب هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا، وهو وسط بين طرفي التذير والتقتير، وقد أثني الله -تعالى- عليه؛ فقال: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا} [الفرقان ٦٧]»^(٥٢). وفي موضع آخر من القرآن الكريم قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} (الإسراء: ٢٩).

يقول القشيري في تفسيره: « لا تمسك عن الإعطاء فتكدي، ولا تسرف في البذل بكثرة ما تسدي، واسلك بين الأمرين طريقا وسطا»^(٥٣).

وجاء في كتاب التسهيل في علوم التنزيل: « لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ استعارة في معنى غاية البخل كأن البخل حبست يده عن الإعطاء، وشدت إلى عنقه ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ استعارة في معنى غاية الجود، فنهى الله عن الطرفين: وأمر بالتوسط بينهما»^(٥٤).

وجاء في السنة ما يدل على التوسط في الأخلاق؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ))^(٥٥).

يقول ابن عبد البر: ((وَهَذَا حَدِيثٌ مَدْنِيٌّ صَحِيحٌ وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى: الصَّلَاحُ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ.. وَالْعَدْلُ؛ فَبِذَلِكَ بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَهُ ﷺ))^(٥٦).

والعدل في الأخلاق: أن يكون بين طرفين مذمومين وسطا من دون إفراط ولا تفريط. وفي هذا يقول ابن القيم: «للاخلاق- حد متي جاوزته صارت- عدوانا،- ومتى قصرت- عنه كان- نقصا ومهانة،... وضابط هذا كله العدل، وهو الأخذ بالوسط الموضوع بين طرفي الإفراط والتفريط، وعليه بناء مصالح الدنيا والآخرة»^(٥٧).

ومما سبق يتبين أن لكل خلق حداً خاصاً به إذا فرط فيه الإنسان أو أفرط أخل به، ولتوضيح ذلك أذكر أمثلة على ذلك:

١- الغضب له حد وهو الشجاعة المحمودة والأنفة من الرذائل والنقائص وهذا كماله فإذا جاوز حده تعدى صاحبه وجار وإن نقص عنه جبن ولم يأنف من الرذائل^(٥٨).

٢- الحرص حده هو الكفاية في أمور الدنيا وحصول البلاغ منها، فمتى نقص من ذلك كان مهانة وإضاعة ومتى زاد عليه كان شرها ورغبة فيما لا تحمد الرغبة فيه.

(٥١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٢٥).

(٥٢) موعظة المؤمنين، للقاسمي (ص ٢٧٠).

(٥٣) تفسير القشيري (٢/٣٤٥).

(٥٤) (١/٤٥٥).

(٥٥) تقدم تخريجه.

(٥٦) التمهيد (٢٤/٣٣٤).

(٥٧) انظر هذه الأمثلة: المرجع السابق (ص ١٤٠-١٤١).

(٥٨) الفوائد (ص ١٣٩-١٤٠).

٣- الحسد حده هُوَ المنافسة في طلب الكمال والأنفة أن يتقدم عليه نظيره فمتى تعدى ذلك صار بغيا وظلما يتمنى معه زوال النعمة عن المحسود ويحرص على إبدائه ومتى نقص عن ذلك كان دناءة وضعف همة وصغر نفس.

٤- الجود له حد بين طرفين فمتى جاوز حده صار إسرافا وتبذيرا أو متى نقص عنه كان بخلا وتقتيرا.

٥- الشجاعة لها حد متى جاوزته صارت تهورا ومتى نقصت عنه صارت جبنا وخورا وحدها الإقدام في مواضع الإقدام والإحجام في مواضع الإحجام. ومما سبق يتبين أن المطلوب من المسلم عند التحلي بالأخلاق أن يأخذ بالوسط والاعتدال، بحيث يختار الحد الصحيح من الأخلاق، ويميزها عن غيرها، ولا يتجاوز المساحة المعينة لها سواء بالإفراط أو بالتقريط.

المبحث الثالث: الأخلاق نتاج الفطرة والاكْتساب

اختلفت آراء الناس وتعددت حول فطرية الأخلاق في الإنسان وعدمها؛ وجاء القرآن الكريم والسنة النبوية ليوضحا المفهوم الصحيح حولها؛ ليصورا بذلك صورة واقعية معتدلة. إن الأخلاق في مفهوم القرآن والسنة هي نتاج الفطرة والاكْتساب، فهي فطرية بحيث يُخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق، كما أنها مكتسبة بحيث يتصف بها الإنسان من خلال المجاهدة والتدريب وحمل النفس على الصفات التي يقتضيتها الخلق الحميد. قال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا} {٧} {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} {٨} {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} {٩} وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس: ٧-١٠].

أي خلقها سووية مستقيمة على الفطرة القويمة، ثم بيّن لها الخير والشر، فمن زكى نفسه بالطاعة، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والردائل؛ فقد أفلح، ومن أهملها، ووضع فيها بخذلانه إيّاها في الهوى وركوب المعاصي؛ فقد خاب وخسر^(٥٩).

وفي موضع آخر من القرآن قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: ٢٩]. قال السعدي: « وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} ووضع في عقولهم حسننها، واستقبح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها»^(٦٠). وأما في السنة فقد جاء أيضا تقرير أن الأخلاق نتاج الفطرة والاكْتساب، فعن النبي - ﷺ -: أنه قال: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يَنْصَرَانِهِ))^(٦١).

يقول ابن رجب: « الإنسان يولد مفطوراً على قبول الحق، فإن هداه الله سبب له من يعلمه الهدى، فصار مهتدياً بالفعل بعد أن كان مهتدياً بالقوة، وإن خذله الله، قيض له من يعلمه ما يُغير فطرته كما قال - صلى الله عليه وسلم -: ((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ وَيَنْصَرَانِهِ وَيَمَجْسَانِهِ))^(٦٢)»^(٦٣).

^(٥٩) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (ص ١٥٨٩).

^(٦٠) تفسير السعدي (ص ٦٤١).

^(٦١) رواه البخاري في صحيحه رقم الحديث (١٣٨٥).

^(٦٢) تقدم تخريجه قريباً.

^(٦٣) جامع العلوم والحكم (٢/٦٣٣).

وفي حديث آخر أن النبي ﷺ قال للأشج بن عبد قيس: ((إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ، وَالْأَنَاءُ. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّا فِي أُمَّ حَدَثًا؟ قَالَ: بَلْ قَدِيمٌ. قَالَ: قُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا))^(٦٤).

يقول ابن حجر معلقاً على هذا الحديث: «فَتَرَدِيدُهُ السُّؤَالَ وَتَقْرِيرُهُ عَلَيْهِ يُشْعِرُ بِأَنَّ فِي الْخُلُقِ مَا هُوَ جَبَلِيٌّ وَمَا هُوَ مَكْتَسَبٌ»^(٦٥).

فهذان الحديثان يدلان على أن الإنسان مفطور على الخلق الحسن.

وفي المقابل فإن هناك أحاديث تدل على أن الأخلاق تُكتسب بالمجاهدة والتدريب، منها: حديث: ((وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفْهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))^(٦٦).

وحديث: ((إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ))^(٦٧).

جاء في فيض القدير في شرح الحديث: «الفضائل ضربان: نظري وعملي، وكل ضرب منها يحصل على وجهين؛ أحدهما: بتعلم بشري يحتاج إلى زمان وتدريب وممارسة ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة... والثاني: يحصل بفيض إلهي نحو أن يولد إنسان عالماً بغير تعلم كعيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام الذين حصل لهم من المعارف بغير ممارسة ما لم يحصل لغيرهم... فقد يكون بالطبع كصبي يوجد صادق اللهجة وسخياً وجريئاً وآخر بعكسه وقد يكون بالتعلم والعادة»^(٦٨).

وهذه الوسطية في فهم الأخلاق من حيث أنها نتاج الفطرة والاكْتِسَاب لها أهمية تبرز من خلال: - آثارها في الفهم ومن ثم الحكم والتطبيق السلوكي للأخلاق؛ ذلك أن البعض يؤول أو يسند تصرفاته الخلقية الخاطئة إلى عاداته المتأصلة في النفس وعدم قدرته على التغيير والتبديل، وكأنها أضحت أخلاقاً جبلية لا تقبل التحسين، ولا يمكن تركها بخير منها.

وفي الجانب الآخر يلاحظ أن البعض يعتذر عن تحسين أخلاقه واكتساب جميل العادات بحجة أنها غير فطرية، فمهما حاول في اكتساب معالي الأمور؛ والتخلق بها؛ فإنها لا تكون راسخة في النفس؛ ولا تثبت على الدوام، بما يؤدي به إلى اليأس من تغيير الأخلاق والسلوك نحو الأفضل والكمال الخلقى.

- ما لها من صلة وثيقة بالتطبيق الفعلي للخلق؛ إذ إن معرفة الفطرة الخلقية لدى الإنسان تساعد أن يوجهها إلى محاسن الأخلاق، ويتخذ الأسلوب المناسب لتهدئتها، والحد من مساوئها. كما يمكن من خلال معرفته بالفطرة تعميق هذا الخلق، وترسيخه بأسهل الطرق وأيسرها.

المبحث الرابع: الرسوخ والاستمرارية

غير خاف أن الشرع هو مصدر التكليف، والموضح للأحكام والأخلاق والمعاملات؛ فالدين الإسلامي مصدر ثمر بالقواعد الخلقية ومعايير القيم والمبادئ السمحة. فالقرآن الكريم وضّح أحوال النفس البشرية بجميع جوانبها المختلفة: نفسياً، وفكرياً وأخلاقياً، وتعبدياً... إلخ، فما من قضية خلقية تهم الإنسان، وتمت له بصلة إلا ووضّحها غاية التوضيح، وبين معالمها غاية التبيان، ورسم لها الطريق الأقوم والسبيل الأمثل في ذلك.

^(٦٤) رواه مسلم في صحيحه: رقم الحديث (٢٥).

^(٦٥) فتح الباري (٤٥٩/١٠).

^(٦٦) رواه البخاري في صحيحه: رقم الحديث (١٤٦٩) ومسلم في صحيحه: رقم الحديث (١٠٥٣) واللفظ للبخاري.

^(٦٧) رواه الطبراني في الأوسط رقم الحديث (٢٦٦٣)، وابن شاهين في الترغيب رقم الحديث (٢٤٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (٢٣٢٨).

^(٦٨) فيض القدير، للمناوي (٥٧٠-٥٦٩/٢).

وإلى جانب ذلك المصدر الأصيل، فإن السنة النبوية كانت تطبيقاً عملياً، وسلوكاً يترجم ما ورد في القرآن الكريم على أرض الواقع. فهي مدرسة أخلاقية متكاملة متناسقة لجميع جوانب الإنسان الخلقية، حيث وضّحت الأخلاق الحسنة، وحثت عليها بجميع الوسائل والأساليب، وفي الوقت نفسه فإنها بيّنت سيء الأخلاق، وعواقبها الوخيمة، وحثّت الناس منه، إضافةً إلى أنها عالجت جميع الانحرافات الأخلاقية، والمشكلات السلوكية، بأسلوب فريد يتلاءم مع طبيعة النفس البشرية.

ومن هنا فإن من خصائص الأخلاق الإسلامية أن معيارها هو القرآن الكريم والسنة النبوية والعقل، فالحسن من الأخلاق ما يحمد شرعاً وعقلاً، والقبح ما يذم شرعاً وعقلاً.

وهذه الخصيصة تعطي للأخلاق الإسلامية صفة الرسوخ والاستمرارية، فهي لا تتغير بتغير المجتمع وحاجاته المالية والنفسية وغيرها، ولا تتبدل بتبدل الأزمنة والأحوال، وهذا الأمر يعدّ من أهم خصائص الأخلاق الإسلامية وأعظم مميزاتها التي تتفرد بها عن القيم والأخلاق الوضعية التي يتعارف عليها الناس بعيداً عن وحي الله المبارك^(٦٩)؛ إذ أنّ الاتجاه الذي يرى أن مصدر الخلق العقل أو الاعتماد على الذات أو المنفعة المالية أو الوقتية أو الحاجية غير ثابت على أصول أخلاقية، فإنها سرعان ما تنقل الرذيلة فضيلة والصفة المذمومة حسنة لمجرد التغيير أو اتباع الهوى أو غير ذلك^(٧٠)، فمثلاً التاجر الذي يستعمل الصدق والوفاء والإتقان لا من أجل الصدق والوفاء والإتقان ديانة وتعبداً ومراقبة لله تعالى، بل من أجل الربح وترويج البضاعة لا يلبث حين يجد الربح بوسيلة أخرى غير هذه الأخلاق، فإنه ولاشك سيهجرها؛ «لأنه في الحقيقة لم يتصف في نفسه بهذه الأخلاق، وإنما استعملها حين وجد الفائدة في استعمالها، وبهذا تتعثر عملية التنمية، ولا تسير في طريق مستقيم»^(٧١).

ولذا فإن القرآن الكريم والسنة النبوية يعرضان الأخلاق مرتبطة بالإيمان والعقيدة حتى تكون راسخة وثابتة لا تتغير بتغير المصالح والحاجات.

قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: ١٧٧].

فهذه الآيات جمعت أمور العقيدة من الإيمان بالله ﷻ واليوم الآخر والكتاب والنبیین وبين أمور في الأخلاق وهو الوفاء بالعهد والصبر والصدق والتقوى.

ومما يؤكد ارتباط الأخلاق بالعقيدة أن القرآن الكريم كثيراً ما يحثّ على الأخلاق الفاضلة، فيبدأ بالإيمان قبل الأمر بها، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان يقتضي ذلك^(٧٢)، وأن الأخلاق من ثمار الإيمان؛ ومن ذلك قوله تعالى في الحث على التقوى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩].

وفي السنة قوله ﷺ: ((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))^(٧٣). فالحديث بيّن أن الأخلاق من علامات كمال الإيمان؛ فالمسلم كلما حسن خلقه وجمل آدابه كان أكمل إيماناً، وأقرب منزلة عند ربه.

وفي المقابل فإن فيه تلميحاً أن الإيمان له تأثير بالغ على البواعث التي تؤثر في سلوك الإنسان وأخلاقه وتصرفاته؛ ولهذا فالمؤمن ترتقي أخلاقه وتكمل بقدر تمكّن العقيدة من قلبه، ويهبط سلوكه بقدر ضعف إيمانه^(٧٤).

(٦٩) مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، لعبدان باحارث (ص ٩٣).

(٧٠) المسؤولية الخلقية والجزاء عليها، لأحمد الحلبي (ص ٢٢).

(٧١) التربية المهنية والحرفية في الإسلام، لجمال الهندي (ص ٣٥١).

(٧٢) تربية الرسول ﷺ - لأصحابه في الناحية الأخلاقية، للصادق عمر فضل الله (ص ١٣٩) والفساد الخلق في المجتمع ناصر بن عبد الله التركي (ص ٧).

(٧٣) تقدم تخرجه.

كما أن القرآن الكريم والسنة النبوية يوجهان المسلم أن يخلصوا نياتهم في سلوكياتهم حتى تكون قربة وعبادة لله سبحانه وتعالى لا تدخلها المصالح الدنيوية؛ قال ﷺ: { وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ } [البينة: ٥]

في الحديث الصحيح: ((أَنْ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ - فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ كَلِمَةً لِلَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))^(٧٥).

ولا شك أن استحضار النية عند العمل الخلقى يكون لدى المسلم التقويم الذاتي المتمثل في مراقبة الله ﷻ- في جميع الشؤون والأعمال، بما يكسبه الاستمرارية في التخلق بالأخلاق الحسنة والثبات عليها؛ لأن مقصوده الأول من تطبيقه الأخلاق هو ابتغاء وجه الله ﷻ ورغبة في رضاه، وليس لأجل منفعة وقتية تنتهي بانتهاء المصالح الدنيوية.

المبحث الخامس: الواقعية

إن منهج القرآن الكريم والسنة النبوية في الجانب الأخلاقي منهج واقعي؛ ولذا حينما يطالبان المسلم بالتأدب بالأخلاق الكريمة فإنه يطالبانه بما يوافق قدراته واستعداداته النفسية؛ قال تعالى: { لَا يَكْفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة: ٢٨٦].
ومن الشواهد على هذه الواقعية:

١- مراعاة تفاوت الناس في تحقيق الأخلاق وإقرارهم على ذلك:

فالناس متفاوتون في أداء الواجبات والتحلي بالأخلاق الحسنة؛ فمنهم يكون طموحاً سباقاً لطلب معالي الأمور، ومنهم من يكون مقتصداً، ومنهم دون ذلك؛ قال تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [فاطر: ٣٢].

فالآية شملت الأصناف الثلاثة على اختلاف مراتبهم وجعلهم من الأمة التي اصطفاه الله ﷻ، يقول السعدي رحمه الله: « فكلهم اصطفاه الله تعالى لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان من وراثته الكتاب؛ لأن المراد بوراثته الكتاب وراثته علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه»^(٧٦).

وجاء في السنة ما يبين تفاوت الناس في العبادات والأخلاق والمعاملات، قال ﷺ مبيناً تفاوت الصحابة في الأعمال والأخلاق مع جلاله قدرهم وعظيم مكانتهم: ((أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقروهم أبي بن كعب، ولكل أمة أمين. وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))^(٧٧).

٢- توضيح أمهات الأخلاق وأصولها، بما يعين المسلم على تحقيقها على أكمل وجه:

من وسطية القرآن الكريم والسنة النبوية أنهما وضحا أمهات الأخلاق وأصولها، ولذا لا «يجهل المسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين، وبذي القربى واليتامى، والمساكين.. ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة والوفاء والصبر والعفاف...»^(٧٨)
قال تعالى: { وَوَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } {٢٣} وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ

^(٧٤) أصول التربية الإسلامية لخالد الحازمي (ص: ١١٣).

^(٧٥) أخرجه البخاري في صحيحه رقم الحديث (٢٨١٠)، ومسلم في صحيحه رقم الحديث (١٩٠٤) واللفظ للبخاري.

^(٧٦) تفسير السعدي (ص: ٦٨٩).

^(٧٧) أخرجه الترمذي في سننه: رقم الحديث (٣٧٩٠) وقال: هذا حديث حسن غريب.

^(٧٨) الوسطية في القرآن الكريم، للدكتور محمد الصلابي (ص: ٤٥٦).

الرَّحْمَةَ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا {٢٤} رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا {٢٥} وَأَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ نَبْذِيرًا {٢٦} إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {٢٧} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا {٢٨} وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا {٢٩} إِنْ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا {٣٠} وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خَطَاً كَبِيرًا {٣١} وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا {٣٢} وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا {٣٣} وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا {٣٤} وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {٣٥} وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا {٣٦} وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا {٣٧} كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا {٣٨} [الإسراء: ٢٣-٣٧].

فالأيات السابقة احتوت على أمهات الأخلاق ومساوئها بما يدل على عناية القرآن الكريم في الحث على التخلق بها والتحذير من مساوئها.

٣-مراعاة الأخطاء الخلقية والدعوة إلى إصلاحها:

لا يخلو البشر من ارتكاب الأخطاء الخلقية؛ لأن النفس جبلت على حب الشهوات وارتكاب المنكرات؛ قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَإِ} [آل عمران: ١٤].

وقال ﷺ: ((كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))^(٧٩).

ولذا فإن من وسطية القرآن الكريم والسنة النبوية في الجانب الخلقى أنها تقدر الطبيعة البشرية وتراعي حقيقتها، وتدعو من وقع في سفاسف الأخلاق إلى إصلاح الخطأ بالتوبة والاستغفار وإتباع السيئة بالحسنة، قال تعالى: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: ١٣].

وقال ﷺ: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ فَلَهُ مَالٌ مِّثْرُ الْأَرْضِ} [آل عمران: ١٣٥].

وفي الحديث: ((اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن))^(٨٠).

٤- الواقعية في الحكم الأخلاقي:

من أخلاقيات الإسلام أنه لا يحكم لشخص بخلق ما إذا صدرت منه على وجه الندرة؛ سواء لعارض أم لحاجة؛ فلا يصف الكريم بالبخل إذا طرأ له طارئ مالي ولم يبذل في حاجات الناس، وفي المقابل من يصدر عنه الإنفاق على وجه الندرة لمصلحة شخصية لا يقال: خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

وهذا الحكم السلوكي مستنبط من الحديث الصحيح الذي رواه البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن ناقته القصواء: ((ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق))^(٨١) يقول ابن حجر

^(٧٩) رواه الترمذي في سننه: رقم الحديث (٢٤٩٩)، وابن ماجه في سننه: رقم الحديث (٤٢٥١)، واللفظ للترمذي وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم الحديث (٤٥١٥).

^(٨٠) رواه الترمذي في سننه: رقم الحديث (١٩٨٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في مستدركه رقم الحديث (١٧٨) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

^(٨١) رواه البخاري رقم الحديث (٢٧٣١).

رحمه الله: «جواز الحكم على الشيء بما عرف من عاداته، وإن جاز أن يطرأ عليه غيره، فإذا وقع من شخص هفوة لا يعهد منه مثلها لا ينسب إليها»^(٨٢).

الخاتمة:

بعد جمع المصادر والمراجع وصياغة البحث على قالب البحث العلمي فإن الباحث قد توصل إلى الاستنتاجات والتوصيات الآتية:

أولاً: الاستنتاجات:

- ١- أن الوسطية في اللغة وفي استعمال الشرع لا يخرج معناها عن العدل والخيرية والتوسط بين شيء مذمومين.
- ٢- الخلق في الاصطلاح على مفهومين: المفهوم العام بمعنى القرآن والإسلام، والمفهوم الخاص هو ما يتصف به الإنسان من سلوكيات راسخة في النفس، بحيث تصدر منه بسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية.
- ٣- وسطية الأخلاق تعني: خيرية الأخلاق الإسلامية والاعتدال والتوازن عند التطبيق بما يعين على التحلي بها على الوجه الصحيح في بُعد عن ارتكاب السلوكيات الخاطئة.
- ٤- أن للأخلاق أهمية ومكانة في الدين؛ وقد تضمن القرآن الكريم والسنة النبوية نصوصاً كثيرة تدل على أهميتها ومكانتها.
- ٥- من مظاهر وسطية الأخلاق الإسلامية: الشمولية، والعدل في الأخلاق، والأخلاق نتاج بين الفطرة والاكتساب، والثبات والاستمرارية، والواقعية.

ثانياً: التوصيات:

- ١- العمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة حول الأخلاق، وذلك بتوضيح شموليتها وعدلها وخيريتها.
- ٢- أفراد دراسات تعني بتقعيد الأخلاق من خلال النصوص الشرعية والخروج بنتائج تفيد في تنمية الجانب الأخلاقي في المسلم.
- ٣- ضرورة تكثيف الدراسات حول أهمية الأخلاق ومكانتها وكيفية بنائها بما يعين على التطبيق السلوكي لها.
- ٤- العمل على إظهار وسطية الأخلاق من المفاهيم النظرية إلى التطبيق العملي من خلال التركيز عليها في بناء المنهاج الدراسي، وكذا من خلال المواقف التربوية المختلفة في البيئة المنزلية والمدرسية ووسائل الإعلام وسائر ميادين العلم والدعوة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

الأخلاق الفاضلة: قواعد ومنطلقات لاكتسابها، د. عبد الله ضيف الله الرحيلي، مطبعة سفير، الرياض، ط الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، عبد الحميد الصيد الزنتاني ط ٢ (١٩٩٣م) الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس.

أصول التربية الإسلامية، خالد بن حامد الحازمي، دار عالم الكتب، الرياض، ط الأولى ١٤٢٠هـ.

(٨٢) فتح الباري (٣٣٥/٥).

- الندمية، أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، تحقيق محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان، ط الخامسة، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- التربية الأخلاقية الإسلامية، مقاد يالجن، مكتبة الخانجي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
- تربية الرسول ﷺ - لأصحابه في الناحية الأخلاقية، الصديق عمر أحمد فضل الله، رسالة ماجستير، قسم الدعوة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، عام ١٤٠٧هـ.
- التربية المهنية والحرفية في الإسلام، جمال محمد الهندي، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
- التسهيل لعلوم التنزيل (تفسير ابن جزي)، محمد بن أحمد ابن جزي، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، إشراف محمود الأرنؤوط، مكتبة الرشد، الرياض، ط الأولى ١٤٢٢هـ.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي،، اعتنى به عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى ١٤٢١هـ.
- جامع البيان (تفسير الطبري) محمد بن جرير بن الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- جامع العلوم والحكم، عبدالله بن أحمد ابن رجب، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الرسالة، بيروت، ط السابعة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- جوانب التربية الإسلامية الأساسية، مقاد يالجن، مؤسسة دار الريحاني للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- دور التربية الأخلاقية الإسلامية لبناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، مقاد يالجن، دار عالم الكتب، الرياض، ط الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- السنن، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إشراف صالح عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام، الرياض، ط الأولى محرم ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- السنن، محمد بن عيسى الترمذي، إشراف صالح عبدالعزيز آل الشيخ، دار السلام، الرياض، ط الأولى محرم ١٤٢٠هـ- أبريل ١٩٩٩م.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق أحمد حمدان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، (د.ت).
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق محمد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، دار السلام، الرياض، ط الأولى ١٤١٧هـ.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط الثالثة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري، خدمة محمد فؤاد عبدالباقي، دار الفكر، بيروت، ط ١٣٩٨هـ.
- الفساد الخلقي في المجتمع، ناصر بن عبد الله التركي، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
- الفوائد، لابن القيم الجوزية، تحقيق: الحسين أيت سعيد، دار المعرفة، الدار البيضاء، المغرب (د.ت).

فيض القدير شرح الجامع الصغير، عبدالرؤف بن تاج المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط الأولى ١٣٥٦هـ.

لسان العرب، ابن منظور، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، لبنان، ط الثانية ١٤١٧هـ.

لطائف الإشارات (تفسير القشيري)، عبدالكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط ٣ (د.ت).

محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، ط الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، اعتناء نجوى أنيس ضو، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.

مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة، عدنان حسن باحارث، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة، ط السادسة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

المسؤولية الخلقية والجزاء عليها، أحمد بن عبد العزيز بن محمد الحلبي مكتبة الرشد الرياض، ط الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٥هـ.

المسند، أحمد بن حنبل الشيباني، ط الثانية، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م. (د.ن).

المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت).

معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط الأولى ١٤٢٠هـ.

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الفكر (د.ت).

المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ضبطه وراجعته: محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، محمد عبدالرحمن السخاوي، تصحيح وتعليق عبدالله محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق عاصم بهجة البيطار، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط الثانية ١٤١٤هـ-١٩٤٤م.

وسطية القرآن الكريم، د. محمد علي الصلابي، مكتبة الصحابة، الإمارات، الشارقة، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم محمد با عبدالله، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، ط الأولى ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.
